

غرور صاحب الجنتين وعدم إيمانه بالبعث

قال الله تعالى: { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ } أي: دخل إحدى الجنتين، أو دخل كلتا الجنتين اللتين { أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } كل واحدة من الجنتين أتت أكلها. يعني: ثمرها، { وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } أي: لم تُخَفِ شيئاً من ثمارها، بل أبنعت ثمارها، فدخلها وهي ذات ثمار، وذات أشجار وأنهار وأزهار؛ فعند ذلك: افتخر، وقال: { مَا أَطْلُ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا } ظنه هذا ظن خاطئ؛ وذلك لأنه نسي قدرة ربه؛ الذي أعطاه، والذي مكنه، نسي أن الذي أعطاه قادر على أن يسلبه ما أتاه، نسي أن هذا ابتلاء وامتحان، نسي أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب؛ فكان آثار هذا النسيان أن افتخر بما أتاه الله، وقال: { مَا أَطْلُ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا } يعني: أن تفتنى وتضمحل. ثم جاء بطامة أخرى بقوله: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً } إنكار للدار الآخرة؛ إنكار لقيام الساعة؛ إنكار للبعث بعد الموت، وكأنه يدعي أنه يخلد في جنته وفي بستانه، وأنها تبقى له دائماً مزهرة لا تتغير، وأنه لو بعث لحصل على خير منها. فلذلك قال: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً } إنكار قيام الساعة كفر؛ من كذب بها فقد كفر؛ وذلك لأن الله تعالى أخبر بقيام الساعة، وخبر الله خبر يقيني، فأقسم عليها في ثلاثة مواضع في قوله تعالى: { وَبَسِّئُوتُوكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } فأقسم بأن ما أخبرهم به فإنه حق، أمره بأن يحلف بربه. وكذلك قال تعالى في موضع آخر: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ } فأقسم، أو أمره بأن يحلف بربه أنها سوف تأتیه هذه الساعة. يعني: قيام الساعة، الذي نفاها هذا الرجل بقوله: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً } . كذلك قال الله تعالى: { رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } ففي هذه المواضع أقسم الله بأن الساعة قائمة، وهذا الرجل يقول: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً } أنكر قيامها، والمراد بقيام الساعة أن يبعث من في القبور، أن يبعث الله الأموات، ويعيد إليهم الحياة، ويحقق لهم ما وعدهم من الثواب على الحسنات، ومن العقاب على السيئات؛ فالذين ينكرون قيام الساعة يكذبون خبر الله تعالى. ومن كذب بالبعث كفر ويقول: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً } . ثم قال: { وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } كأنه يقول: لو قُدِّرَ أنني بعت، ورجعت إلى ربي؛ ليعطيني خيراً منها، وكأنه يدعي أن من أعطي في الدنيا فإنه يعطى في الآخرة. ولا شك أن هذا من الخطأ الواضح؛ فليس كل من أعطاه في الدنيا يكون دليلاً على كرامته بل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا من أحب. وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الدنيا تافهة وما عليها؛ فيقول -صلى الله عليه وسلم- { لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء } . لكنها والله أحقر عنده من ذا الجناح القاصر الطيران أي: هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حقيرة مهينة عند الله، أحقر عند الله من جناح بعوضة. لا تعدل ولا تساوي جناح بعوضة. ما فائدة الجناح، وما ثمنه، وهل له قيمة؟ لو كانت الدنيا تعدل -تساوي- جناح بعوضة ما أعطى منها الكفار؛ وذلك لأن الكفار كفروا بنعمة الله، وجحدوا ربوبيته وألوهيته؛ فكان جزاؤهم أن يجرموا من لذة الدنيا، ولكن الدنيا حقيرة فقيرة، ورد ما يدل على أنها حقيرة عند الله. قال الله تعالى: { وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرُقًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ } . أخبر بأنه لولا أن الناس يكونون كلهم كفار، يخرجون من الملة؛ لمتعنا أهل الدنيا بمتاعها، وجعل لبُيُوتِهِمْ سُقْفًا. أي: سقفها التي هي الصبات التي فوقها من فضة لجعلنا { لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِصَّةٍ } أي: سقف البيت هو أعلاه؛ أن تكون كلها من فضة ومعارج. أي: درجا من فضة أيضاً: { عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ } { وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا } أي: من فضة، { وَسُرُرًا } السرير؛ جمع سرير، وهو الذي ينام عليه، أو يجلس عليه. { عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرُقًا } أي: ذهباً لولا أن الناس يكونون أمة على طريقة واحدة؛ لجعل الله للكفار هذه الأشياء، ثم قال تعالى: { وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } أي هذا كله متاع الدنيا؛ متاع غرور. يعني: كما قال تعالى: { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } هكذا أخبر بأنه لا حظ لهم في الآخرة، إنما الحظ في الآخرة للمتقين { وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ } . فهكذا هذا الرجل الذي يقول: { وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } أي: ليعطيني خيراً من هذه الجنة؛ فإنه يدعي أن هذا حظ، أنه ذو حظ عظيم؛ لما أعطى هذه الجنة، لما أعطى هذا المتاع وهذه الزينة وهذه الزهرة ظن أن ذلك دليل كرامته؛ فقال: { وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ } يعني: عند ربي خيراً من هذه الجنة منقلبا.